

شمس بيضاء باردة

رواية شمس بيضاء باردة للكاتبة الأردنية كفى الزعبي عن شاب أردني يعمل معلماً وهو من عائلة فقيرة مثقف تائه في مجتمعه يرمز إلى شخصية المثقف العربي الذي يصادم الواقع ديني واجتماعي واقتصادي يتناقض مع ما يصبو إليه.

بطلنا يتصادم مع والده حيث أن الأب لا تعجبه حياة ابنه غير التقليدية فهو يريد أن يتزوج ويكون أسرة بينما هو منصرف إلى أمور أخرى كالكتب القراءة.

الخلاف بينه وبين أبيه لم يكن خلافاً على القراءة بقدر ما كان خلافاً على نوع الكتب المقرؤة وعلى النظرة إلى الحياة فالآب نظرته واقعية تقليدية يطرحها بطريقة قاسية طريقة الفرض والولد نظرته حالمه متشائمة قادته القراءات إلى الإلحاد أو أوشك أن يدخله.

يحب فتاة يراها عن بعد ولم يصارحها بحبه بل لعله لم يتحدث معها حتى.

لأبيه قريبة أرملة تزورهم مع ابنتها وهما عائشة وأمها فتدعوهما أم بطلنا في كل مرة للمبيت في منزلهم محاولة لكن أم عائشة كانت تلبي الدعوة الأمر الذي يغضب الزوج في كل مرة فهو يتضايق من أم عائشة وابنتها البلهاء حتى يقع حادث لأم عائشة بعدها خرجت من منزل قريبها يودي بحياتها ويخلف ابنته للوحدة. يتدخل والد بطلنا الذي كان بالأمس يزدرى أمها فيظهر لها مقداراً كبيراً من التعاطف ويرحب بها من أجل حفظ أموالها ظاهراً وطمعاً في مالها باطنًا حيث يأخذ منها ذهبها بحجة المحافظة عليه لحين تتزوج و يجعلها تستخرج له وكالة على أموالها كي يتصرف في منزلها مستغلاً بلاهتها وقربه منها رغم وجود من هو أقرب لها منه من طرف والدها المتوفى.

تتكلف عائشة بشؤون المنزل تنظيفاً وتنسيقاً لكن مستضيفها يتضايق من المصاريف الزائدة المبذولة في المنظفات وفي طعامها.

وفي لحظة ضعف ينساق بطلنا وتنساق عائشة خلف الشهوات ويقع بينهما المحظوظ وقد كانت انتقلت إليهم خوفاً من أبناء الحرام لكن ابن مستضيفها هو ابن الحرام كما اتصح. ينتهي الندم فؤاد البطل ويشعر أنه بات نذلاً لأبيه لا يفرق عنه في شيء لكن الندم لن ينقذه من الفضيحة حينما اكتشف الأب والأم أن عائشة حبلى فقامت قيامة البيت على رأسه وبعد أن كان الأب والابن مجرمين في حق عائشة انضم الأم إلى ركب المجرمين حينما تآمرت مع زوجها من أجل تزويج تلك المعتوهة بشاب معتهداً مثلها وحضرتها على عدم إظهار أعراض الحمل في الشهر الأول أمام زوجها وإن اكتشف كونها ليست بكرأً أمرتها بأن تدعى عدم معرفتها بشيء وقد تعرضت عائشة للضرب من قبل المستضيف وتعمد توجيه الركلات إلى بطنها عليها تسقط جنينها ولكنها كانت تتمتع ببنية قوية منعت الجنين من السقوط.

يتعجب البطل من الازدواجية في المعايير الإنسانية فوالده اللعين كان لا يترك الصلاة وأمه الطيبة شاركت في ظلم عائشة وهو الذي يدعي القيم فعل ما فعل مع عائشة والمجتمع يزدرى الفقراء والمتسولين وهو يزدرى المجتمع. لكن موت عائشة كانت صدمة كبيرة رغم الفرحة الباطنية بخلاصهم من فضحيتها ولكن هل للضمير أن يبرد بعدما ماتت بسبب موت الجنين في بطنه؟!

الصراع بين البطل وأبيه كان متعدما رغم السلبية الظاهرة التي ظهر عليها البطل إزاء موقف والده المشينة تجاهه أو تجاه المجتمع بل ربما كان يدافع عن أبيه في بعض الأحيان مراعاة للمجتمع لكنه في باطننه يمقت والده ويزدريه.

السرد كان من أهم جماليات الرواية فقد كان متناسقاً منتظماً كعقد من اللؤلؤ أو حبات سبحة لم تنفرط. شخصية البطل الذي يسرد الأحداث والمشاعر كانت بارزة الأبعاد إذا استثنينا البعد الجسماني الذي كان الوصف فيه فقيراً أما بقية الشخصيات فكانت سطحية لم تشرح الكاتبة مبرراتها ومن أبرزها شخصية الأب الذي بدأ في الرواية شيئاً وانتهى شيئاً دون أن نعرف لسوئه خلفية أو سبباً.

صراعات كانت تعتصر البطل من كل صوب وحدب صراعات مادية تمثل بعدم كفاية مرتبه سد حاجته صراعات ثقافية تمثل في عشقه للقراءة ومحاربة والده لكتبه، صراعات عاطفية وجنسية تمثل في تجاربه المحرمة، صراعات اجتماعية تمثل في علاقته بالمجتمع الصغير مديره أصدقائه عائلته، صراعات وجودية وميل إلى الإلحاد من قبله.